

اجسام البشر المتعبة تلتصق بالمقاعد الخشبية المتآكلة . الريح تهب بقوة ، سوط الحودي يرتفع نحو الاعلى ويدور ، يدور فتسرع الجياد منعشة في أحجار كبيرة وصغيرة ، متناثرة في الطريق المعبد الطويل ، من حين لآخر تمر سيارات وشاحنات عكس اتجاهنا فتتحرف الجياد بتلقائية نحو أقصى اليمين . ربما تعلمت ذلك من فعل الممارسة اليومية والعادة المكرورة الرتيبة . ربما تفعل ذلك عن طريق اشارات وعلامات ورموز خاصة تصلها من الحودي . يمسك الحودي السوط بيده المزرق من فعل البرودة ، يفرقه في الهواء فتعود الجياد المتعبة الى سيرها الطبيعي وسط الطريق المعبد .

دخان السجائر الكثيف يطرد من الافواه الخمسة ، يتشكل كثيفا امامنا ، ينزل بطريقة دائرية مثيرة ، ثم يتصاعد في الهواء ببطء ليعلن عن سيعاشي ما ، مهم وغير مهم . الوجوه الشاحبة الصفراء امامي تتناوب انظر الى الطريق ثم الى الجياد ثم الى الحودي . تنظر اليهم بكسل وتبتلع دخان السجائر الرخيصة . المكان شبه خال الا من اشجار نادرة بعيدة وبعض سيارات انقضت تماما عندما دارت عربتنا نحو الشمال . الجو موحش مقفر . تمضي العرببة وتترك خلفها الاصدااء رتيبة تخترق الصمت الاجباري . ندخن ونحاول ان نقول شيئا ما ، نتبادل بضع كلمات وجملا قصيرة وتعليقات خاطفة . . . الجو بارد هذا الصباح . . . يعود الصمت الابدي المفروض ونحس اكثر من ذي قبل بمرارة دخان السجائر وهو يحرق الانفاس ، وهو يمر من الانف ثم وهو يخرج يتحد ليضيع مع اشياء كثيرة في السماء . . . كنا نعرف ان الجو متكلف الى حد لا يوصف وكنا نحاول ان نقنع انفسنا مفتعلين اسبابا وهمية ، باننا غير مخطئين . . . وان الامور فوق جهودنا المحدودة ، كنت خلال الحديث القليل الدائر بين الوجوه العابسة اركز نظري على السلة التي وضعت فيها بيضا وحليبا وخبزة دقيق وسجائر ، الشيء الوحيد الذي يربطهم بعالمنا ، كانوا يطلبون مني ان احضر لهم

أنواعا عادية ، وحين يجوعون في الاضراب عن الاكل ، يستطيعون التحخين فالسجائر هي الخيط الوحيد الرابط بينهم وبيننا نحن الذين لم نتحمل ، ثم نستطع . . . (الباب الحديدي يفتح ويفلق ، ليخرج رجل بلباس أزرق مخطط بالابيض ، يدخل ليعود صحبة رجال آخرين بنفس اللباس والهيئة . يفتح بعضهم الباب الجانبي والبعض الآخر يدخل أو يضحك ليظهر أسنانا صلبة بيضاء . يتجمهر الزائرون أمام الباب ويدخل بالسلة والسجائر . عابدة السجائر تفتح أربع أو خمس مرات قبل أن تصل الى أيديهم . الحليب والبيض والخبز ، تخضع لمراقبة شديدة وصارمة . الأشياء الأخرى ممنوعة . . .)

صباح الديكة في أماكن قريبة يمزق حدة الصمت ويعلن عن مولد يوم جديد .

كذت أترقب لحظة شروق الشمس - الأوجه الخمسة الحزينة لا ترحب بالمولود الجديد ، رفعت رأسي وتمتمت بتلقائية :

- صباح الخير
- صباح الخير
- التقت عينانا صدفة . كان فرحا ونشيطا عكس الآخرين ، يسطع من وجهه بريق حاد ، يشع ويضيء ليعلن عن انتصار من نوع ما ، سألت :
- أنتظن أن الحراس لم يرونا ؟
- اعتقد
- ألم يسمعوا أقدام جياد العربدة وهي تقاوم الليل العنيد ؟
- أتمنى ألا يكونوا قد سمعوا شيئا .
- والجنود ؟ ألا تعرف أنهم موجودون في كل مكان ؟
- أعرف . . . أعرف
- وإذا حاصرونا ؟ ماذا سنفعل ؟
- سنقول لهم بأننا عاديون ، نقدم لهم أوراقنا ونمضي .
- والسجائر ؟ والأشياء الممنوعة ؟
- سنقول بأنها للبهائم .
- للبهائم ؟ الجنود يعرفون أن البهائم لا تأكل البيض وخبز الحقيق والحليب .
- سنحاول أن نقنعهم بعكس ذلك .
- تظن أنهم سيصدقون ؟
- لا يهم . !

العربة تمضي في حزم مع الشارع الذي يتأكل تحت دراجتيها الخلفيتين وتحت أرجل الجياد الجائعة . الرجل الذي أمامي يقرأ

جريدة الصباح . يوقف الحوذي العربية ويطلق تنهيدة طويلة ليستريح .
الجواد الاحمر ينقر بقدميه الاماميتين ويهز راسه في خفة بينما الآخر
يتابع حركاته باهتمام . اشعة الشمس تلاحق بقعة الظلال وتملأ المكان
ضياء . يتوقف الزمن عند هذه اللحظة ويتمدد ، الساعة قابلة لان تكون الثامنة
او التاسعة او حتى الحادية عشرة . الرجال الذين اراهم الآن يدخلون ويحتسبون
كووس القهوة في ضمت .

فجأة ومن حيث لا ندرى يقف الجندي الاشقر العنيد ويأمر الحوذي
بان يمضي خلفه ، يقفان معا جنب العربية . تملؤنا الحيرة والدهشة
والتساؤل . يشير الجندي باصبعه الغليظة نحوي ، أنتقدم نحوه ، خطوة .
خطوتين ، ثلاث خطوات ، أشقر ، قصير ، عمارة من حجر صلب ، ابتسامه
ساخرة خبيثة ، سألني :

— السلة سلتكم ؟

لم أجبه

— البيض والحليب وخبزة الدقيق ؟

لم أجبه

— ألا تعرف حضرتكم انها اشياء ممنوعة ؟

لم أجبه

— وانها غير صالحة صحيا للسجناء ؟

لم أجبه ، أمرني :

— اجمع واتبعني

لم أجبه

دخان السجائر يحبو نحو الاعلى في انهزام . وتمضي العربية في الطريق
الطويل بايقاع مميت مرعب . لهيب اشعة الشمس يلسع الوجوه المتعبة .
نفس الطريق كل يوم . نفس الرحلة . نفس الحراس والجنود والعسس .
ثم لا تلبث أن نعود مع المساء الى القرية المشلولة ونحدث عن اشياء غريبة
ولقاءات وهمية تمت ولقاءات سوف تتم . ثلاث سنوات ونحن نبحث عن
بصمات ووجوه تشبه وجوههم . كانت امي الشخص الوحيد الذي لا يريد أن
ينسى . نترك القرية اياما وتذهب لتصيح في المباحث والحاكم . . تمر
على الذين تعرفهم ولا تعرفهم وتسال . . وتمضي العربية بعد لقاء قصير وبعد
تفتيش دقيق في علبة السجائر وفي المأكولات . الباب الحديدي المغلق ينفتح مرة
واحدة كل ثلاث سنوات ، يظهر رجل ببذلة صوفية انيقة وزرقاء مخططة
بالابيض . . ومع ذلك يبتسم الآخر للزائر !

الياس ادريس

6 يناير 1978